المحاضرة رقم 07: الحداثة الشعرية في الجزائر

يربط كثير من الدارسين والنقاد الحداثة في الشعر الجزائري بفترة السبعينيات وبالفترة التي تليها، كما يؤرخون لانطلاقتها خاصة على مستوى التحديث الشكلي العروضي بأول نص كتب وهو من شعر التفعيلة لأبي القاسم سعد الله.

شكل شعر السبعينيات اللبنة الفعلية لإرساء معالم الحداثة في الشعر الجزائري والنزوع الواضح نحوها من خلال الكم الهائل من الدواوين التي تتوخى فعل التحديث الشعري، حيث مهدت الطريق للأجيال المقبلة، الذين سعوا إلى إرساء معالم الحداثة عبر أشعارهم من أبرزهم نذكر: (أحمد حمدي، أزراج عمر، سليمان جوادي، أحلام مستغانمي،...)، فقد عمد هؤلاء على نظم القصيدة الجديدة (التفعيلة) وأوغلوا في الحداثة.

لعلنا نمثل هنا بأحد أبرز الشعراء الجزائريين الذين مارسوا الحداثة عبر الشعر الحر وآمنوا به طريقا للتجريب، والتنويع في الأساليب وهو الشاعر **سليمان جوادي**، يقول في إحدى قصائده:

القدس لنا، القدس لهم

القول لنا، والفعل لهم

ولدينا يا أبتي في الجعبة أسرار

ولدينا في الجعبة يا أبتي أخبار

ولدينا ولدينا الأشعار

أشعار الثورة يا أبتي

أشعار الثورة والثوار

والغضب الساطع يا أبتي

الغضب الساطع حلم

ولدينا كل الأحلام.

هذا وتشير الكثير من الدراسات إلى أنه ولما كانت النظرة الحداثية للشعر لا تحدها حدود ولا تسجيها قيود زمنية ولا مكانية، فإن نظرة الشاعر الجزائري الحداثي إلى الشعر لا تكاد تخرج عن نظرة الشاعر العربي

عامة إلى هذا الكون الشعري، وهي نظرة حصرها **أدونيس** في مبادئ أربعة أساسية وزعها بين الموضوع وطريقة التعبير عن هذا الموضوع، وبالمنجز الشعري في حد ذاته ومبدع هذا الشعر، حيث:

- ✓ **المبدأ الأول:** يتصل بالموضوع أو المضمون، وخلاصته أن الحياة الجديدة التي يحياها الشاعر ولدت مشكلات جديدة، ولهذا فإن عليه أن يعي هاته المشكلات، ويشتق موضوعاته منها.
- ✓ **المبدأ الثاني:** ويتصل بطريقة التعبير، فإذا كانت المشكلة قد تغيرت فإن على الشاعر أن يغير طريقة تعبيره، فلا يمكن التعبير عن مضمون جديد بشكل قديم.
- ✓ **المبدأ الثالث:** ويتصل بتعريف الشعر، فتعريفه في الماضي تابعا لأغراضه وأشكاله، وبما أن هذه الأغراض والأشكال قد تغيرت فإن تعريفه يجب أن يتغير.
- ✓ **المبدأ الرابع:** وينبثق من المبادئ الثلاثة الأولى، وخلاصته أنه علينا أن نغير النظرة إلى الشاعر، فلم يعد الشاعر من يكتب القصيدة تلو القصيدة دون رؤيا للعالم، أو موقف منه، بل الشاعر هو الذي يصدر عن رؤيا يربط فيما بينها ويوحدها.

خصائص وسمات الحداثة الشعرية الجزائرية:

اكتسب الشعر الحداثي في الجزائر سمات جديدة طورت القصيدة شكلا ومضمونا، ولعل من أبرز سمات وخصائص الشعر الحداثي الجزائري نجد:

أ-التشكيل الحداثي للغة الشعرية:

إن الاهتمام باللغة والخروج عن الشكل اللغوي القديم يعد من معالم حداثة وجدة القصيدة ، لهذا جنح الشاعر الجزائري بإيعاز من وعيه الحداثي إلى التعمق في لغته محاولا فهمها، منقبا عن آليات جديدة للخروج عن لبوسها القديم وكسائها ثوبا يليق بأن يقال عن القصيدة التي ترتديه قصيدة حداثية.

غدت لغة الشعر الجزائري الحداثي مشحونة بالدلالة والإيحاء، فلا يقتنع الشعراء إلا بتوظيف سلسلة من الرموز المتنوعة بحكم قراءتهم من الأدب الحداثي المشرقي وانفتاحهم اللامشروط على الأدب الغربي، وقد التف شعراء الجزائر حول الرموز المحلية واحتفوا بها، فكان منهم من ولع بتوظيف الأوراس كرمز للشموخ واستنطاقه ومحاورته، بعد أن تحاول إلى رمز كبير للمقاومة الجزائرية.

هذا ولم تعد لغة التعبير الشعري الجزائري الحداثي تصف العالم المادي الخارجي بقدر ما أصبحت تصف العالم الداخلي للذات الشاعرة، كما لم يعد الشعر مجرد قوالب نحوية وصرفية وبلاغية وعروضية

جاهزة يصب فيها الشاعر معانيه وأفكاره، بقدر ما أصبح تشكيلا جديدا في فضاء يسوده غموض العبارة وسحرها.

ب- التشكيل الحداثي للموسيقى:

شهدت القصيدة الجزائرية في ظل الحداثة تطورا مس العديد من جوانبها، من ذلك نجد الموسيقى، فالشاعر الجزائري الحداثي سعى إلى تخليص القصيدة من نظامها القديم وذلك بتخليصها من نظام (الصدر والعجز) ومن القافية الموحدة، إلى جانب ذلك نجد الشعراء الجزائريين الحداثيين ابتكروا صورا جديدة للتشكيل الموسيقي كان منها اعتمادهم **للتكرار**، فقد مال الشعراء الجزائريين إلى استخدام أسلوب التكرار وحاولوا استغلاله والاستفادة من قيمه الجمالية والإيقاعية وهو في ذلك أنواع: تكرار الصوت/ تكرار الكلمة/ تكرار الجملة، ولعلنا هنا تنمثل بتكرار الكلمة عند الشاعر **سليمان جوادي**، الذي استعمل التكرار اللفظي بصورة مكثفة في قصيدته "ما سر القمة يا أماه؟"، يقول:

الجسم الرابض فوقك يا وطني

قالوا: مرن، مرن، مرن

قول قد يقبله المنطق

صدق.. صدق.. صدق

فالكلمة في وطني كالغادة إذ تعشق

تتربع فوق العرش وتمتحن

صفق.. صفق.. صفق

وظف الشاعر عبر قصيدته هاته **ظاهرة التكرار اللفظي** من خلال الكلمات (**مرن/ صدق/ صفق**) إذ تكررت كل لفظة ثلاث مرات، تكريسا لحالة الشاعر العاطفية المشحونة بالغضب والسخرية،مما يحدث في وطنه من تلاعب سياسي نتيجة تعدد الأحزاب وإجراء القمم القائمة على الوعود الكاذبة بتحسين الأوضاع، هذا بالإضافة إلى أن هدفه من اعتماد التكرار اللفظي يكمن أيضا في جذب نظر المتلقي وإثارة ذهنه للبحث في دلالات هذا التكرار.

ج-التشكيل البصري:

أصبحت القصيدة الجزائرية وكغيرها من القصائد المعاصرة التي تعتمد بشكل خاص على ظاهرة التشكيل البصري الذي أضحى جزءا لا يتجزأ من القصيدة الحداثية ككل، وقد كان ذلك بعد أن أجمع العديد من النقاد والشعراء على اعتباره عنصرا من العناصر الأساسية المساهمة في آداء المعاني التي يصبو إليها الشعراء من خلال قصائدهم، إذ لم تعد بذلك القصيدة الجزائرية المعاصرة ألفاظ وكلمات موجهة للمتلقي فقط بل أصبحت تشمل أيضا مظاهر الإخراج على غرار الحجم ونوعية الورق المستعمل في الكتابة من طرف الشاعر بالإضافة إلى بقية التقنيات الطباعية الموظفة التي يستخدمها الشعراء الحداثيون في تنظيم الصفحة والغلاف وتركيبه العلامي البصري (العناوين/ الصور/ الرسوم/الألوان).

لعلنا هنا نمثل بأحد أبرز مظاهر التشكيل البصري ممثلا في نمط **السطر الشعري المتدرج**، هذا الأخير الذي نلمح حضورا بارزا على مستوى القصائد الحداثية الجزائرية وهو في ذلك يعرف بأنه: "الشكل السطري الذي تكون فيه المسافة السطرية غير متكافئة الابتداء والانتهاء، وذلك بما يشغل مساحة مقطع شعري معين، فيعمل هذا الشكل الكتابي على استثارة خاصة البصر لدى المتلقي ويحفزه على التفاعل مع الشكل المنصوص عليه، ويحفوها على مساءلته، وهذا يعود بين الربط بين حركة السطر والدلالة اللغوية".

نجد حضور **السطر الشعري المتدرج** في شعر **عزالدين ميهوبي**، من ذلك نستشهد بقصيدته الآتية:

ولدت قبيل الفجر

واحترقت مساء

لبس التراب سواده

ذبلت زهور المدينة

أجدبت السماء

رحلت سناء

وأطل عراف المدينة

كان يبكي

لم يقل شيئا

لقد جاء التشكيل البصري في هذا المقطع الشعري مناسبا للحالة الشعورية التي يعبر عنها الشاعر **عز الدين ميهوبي** من خلال هذه القصيدة، ذلك أن السطر المتدرج يحمل العديد من الدلالات السلبية على غرار دلالة الهبوط والضياع والتشتت وفقدان الطريق والأمل في تغيير هذا الواقع، الذي يعيش في كنفه الإنسان، وحاول الشاعر تجسيد التهاوي والتساقط الذي يعيش في كنفه الوطن العربي .

ومن **صور الحداثة** التي مست الشعر الجزائري أيضا نجد:

✓ اعتماد الأسطورة:

إن توظيف الشاعر الجزائري المعاصر للأسطورة نابع من شعوره بحالة التماثل وفق التاريخ والوقائع الراهنة حيث تمتزج عناصرها وفق الحالة الوجدانية التي تخترق تلك الطاقات في نصه الشعري، من ذلك نمثل بقول الشعر **عاشور فني**:

كأني هنا منذ القيامة

أنتظر السندباد

وأبحث عن وجهة للرياح

ومرفأ للسفن

كأن جميع الدروب تؤدي صخرة

والمدى يتفتح عن هوة للإقرار لها.

أسقط الشاعر **عاشور فني** حالته الشخصية على أسطورة السندباد الذي يرمز للشخصية الضائعة والتفرد وعدم الاستقرار، فهذا التصوير الفني حمل نسيج القصيدة من شكلها الفردي إلى جوهرها الخارجي الأم لنقل التجربة في أدق تفاصيلها والغوص بالمتلقي إلى أبعد نقطة ممكنة في لم هذه الشظايا كون الأسطورة مفترق طرق تحتم على القارئ حبك الميدان التاريخي والتمرس فيه قصد فك شفرات النص.

✓ النبرة الصوفية:

لم يخرج الشعراء الجزائريون عن خط الشعر العربي المعاصر في سعيه لتشكيل لغته الحداثية، فالتف كثير منهم إلى الخطاب الصوفي، مستفيدا من دواله ومدلولاته المختلفة في إثراء تجربته الشعرية، نذكر

من هؤلاء الشعراء: عبد الله حمادي، عثمان لوصيف، ياسين بن عبيد، مصطفى الغماري، عز الدين ميهوبي، عبد الله العشي،...وغيرهم.

لعلنا هنا نمثل بتجربة **عثمان لوصيف** الذي يقول في إحدى قصائده:

آه.. يا حوريتي الشقراء

وأميرتي الهيفاء

وعروستي القادمة من نفحات الفردوس.

فعثمان لوصيف هنا ينادي المرأة تارة بالحورية الشقراء وتارة بالأميرة الهيفاء، وهي أوصاف تعكس جمال هذه المرأة التي أشعلت الوجد في قلب الشاعر وألهبت فيه نار الغرام، لكنها أوصاف تخترق أفق التوقع لدى القارئ متجاوزة صورتها التقليدية في مخيلته، ليقرأ من خلال أسطر القصيدة كيف تتحول هذه المرأة إلى كائن غيبي.إن لغة هذا المقطع الشعري لغة صوفية موغلة في الانزياح، كاسرة نمط التعبير التقليدي.

بعض المراجع المعتمدة في المحاضرة:

-خديجة كروش، تجليات الحداثة في الشعر الجزائري من 1990 إلى 2010 دراسة في الرؤيا والتشكيل، (أطروحة دكتوراه)، إشراف: أحمد جاب الله)، جامعة باتنة- الجزائر، 2017- 2018.

-كمال لعور، الشعر الحداثي الجزائري في السبعينات –معالم التجديد، وأشكال التجريب مجلة الباحث، مج: 13، ع: 4، 2021.

-عبد الباقي بن ذيب، الشعر الجزائري المعاصر بين التراث والحداثة الشاعر عثمان لوصيف –أنموذجا- ، (رسالة ماجستير)، إشراف: محمد عبد الهادي، جامعة محمد خيضر بسكرة- الجزائر، 2010- 2011.

-كمال لعور، محامد الحداثة ومآخذها في الشعر الجزائري المعاصر حقبة السبعينيات أنموذجا، مجلة الآداب واللغات، مج: 8، ع: 2، 2022.

-سليماني نجاة، ظاهرة التكرار وجماليتها الإيقاعية في القصيدة الجزائرية المعاصرة، مجلة العمدة الدولية في اللسانيات وتحليل الخطاب، مج: 03، ع: 03، 2019.

-أحلام شمري، رابح طبجون، التشكيل البصري في القصيدة الجزائرية المعاصرة: الأبعاد والدلالات، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، مج: 04، ع: 03، سبتمبر 2021.

-حمايد طيب، أزمة الحداثة في الشعر الجزائري المعاصر، مجلة مالك بن نبي للبحوث والدراسات، مج: 1، ع: 1، 2019.

-لخميسي شرفي، التجربة الصوفية والتوظيف الرمزي في شعر عثمان لوصيف، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج: 08، ع: 5، 2019.